المحاضرة 03

في تونس:

يمتاز الشعر التونسي الحديث بالثراء و التنوع، فإلى جانب الشعر التقليدي الكلاسيكي الذي لم يبرح الأغراض التراثية و المواصفات الايقاعية المعروفة، تمخض الفكر الإصلاحي في هذا القطر عن لون جديد من الشعر انفتح على قضايا العصر، و أوّل من كتب في ذلك " محمود قابادو (1813-1871)، و قد انبثقت من هذه التجربة في آواخر القرن التاسع عشر حركة عرفت بـ " الشعر العصري" ، امتدّ حضورها حتّى العقد الثالث من القرن العشرين ، و كان من أبرز أعلامها المؤسسين " محمد السنوسي (1851-1900) و " صالح السويسي القيرواني (1871) ، و " محمد النيفر و حسن المزوغي، و محمد النخلي ، و عبد العزيز المسعودي " . ثم واصل السّير في الطريق الذي رسمه " الشاذلي خزندار (1881-1954) ، و مصطفى أغا ، و بلحسن بن شعبان ، حيث دعت تلك الحركة إلى هجران الأغراض الشعرية القديمة ،و الدعوة إلى فتح القصيدة على القضايا العصرية و توظيفها في تصوير مظاهر التقدم التي أفرزتها الحضارة الغربية الحديثة.

لكنّ المتأمّل في مدونات تلك الفترة يلاحظ غلبة النزعة التسجيلية التوثيقية عليها، و عدم انطوائها على تجارب عميقة متميزة.

و ربّما أمكننا أن نلاحظ في عشرينيات القرن تجربة طريفة " للسعيد أبي بكر (1899-1948) الذي نظم قصائد على بحور من اختراعه ، كما نظم مجموعة من المقطوعات القصار سنة 1930 بعنوان " الزهرات" يطابق أكثرها ما يسمى اليوم القصيدة الومضة.

إلّا أنّ أهم محطة في مسيرة الشعر التونسي طيلة هذه الفترة كانت و بلا منازع تجربة " أبي القاسم الشابي"(1909-1934) ، الذي تفوّق على أقرانه و سابقيه من التونسيين .

فقد كان صوت هذا الشاعر طيلة السنوات الثمانية التي ظهر فيها للنّاس (1926-1934)، بمنزلة الصّرخة المدوّية التي ارتجت لها أركان الوسط الثقافي التونسي بأسره ، و امتدّ صداها حتى المشرق العربي ، حيث وجد تجاوبا واسعا لم يحظ بمثله أي صوت أدبي تونسي آخر حتّى اليوم .و هذا ما جعل منه ظاهرة فريدة لافتة ، وأهّله ليكون نقطة استدلال مميزة حاسمة في تاريخ الشعر التونسي الحديث و المعاصر.

لقد أعلن الشابي سنة 1929 الثورة على الشعر القديم جملة و تفصيلا، و ذلك عند حديثه عن الخيال الشعري عند العرب". وأصبح الشعر بفضل هذا الصّوت الجديد الجريء المتوثب تجربة عميقة في الحياة و اللغة معا، تعضدها وجوبا قدرات خارقة على التخيل و الادراك و الحدس ، زيادة على حساسية مفرطة تكاد تكون مرضية.

و رغم هذه الثورة التي أحدثها الشابي في الشعر ، إلّا أنّ هذا المفهوم الجديد لم يقض على المفهوم القديم للشعر الذي استمرّ في الأخذ به العديد من الشعراء الذين وجدوا فيه انسجاما بين رؤيتهم المخصوصة للواقع و الذات و الكون، و اقتفائهم آثار السلف. بل إنّ هذا الاتجاه التقليدي –مثلما يذهب البعض – هو الذي كانت له الغلبة كميّا في عهد هذا الشاعر ، بحكم كونه مكونا من مكونات الثقافة الرّسمية ، و من أبرز ممثليه:

- الطاهر القصار (1899-1988)

- جلال الدّين النقاش (1910- 1989)

- الشادلي عطاء الله (1899-1991)

- محمد العربي الكبادي (1880-1961)

- مصطفى المؤدب، و محمد فائز القيرواني، و الصّادق مازيغ.

و لقد ازدهر في الفترة نفسها الشعر الغنائي العاطفي الموجه أكثره إلى الطرب و التلحين، و من أهم رموزه: محمود بورقيبة، محمد العربي، عبد الرزاق كرباكة، مصطفى خريف، و آخرين.

من وفاة الشابي إلى الاستقلال:

أوّل محطة تستوقفنا بعد وفاة الشابي هي الحركة الشعرية النضالية الوطنية الصّريحة التي ظهرت في الأربعينيات و التي قادها " الصّادق مازيغ و محمد زيد "، و كان مسرحها مجلة " المباحث" ، و التي و إن لم تعمّر طويلا إلّا أنّها استطاعت أن تمهّد السبيل لظهور أصوات شعرية وطنية مدوية كان لها حضور مهم في السنوات المتبقية من عهد الحماية.

و رغم تغلب الشعر التقليدي – في هذه الفترة- بحضور قوّي لأعلامه مثل " الطاهر القصّار" ،و " الشاذلي عطاء الله" و جلال الدّين النقاش و غيرهم ، رغم ذلك فإنّه لم يمنع ظهور بوادر تشكل تيار تحديثي قاده شعراء شبان نفخ فيهم الشّابي روحه التجديدية ،مستلهمين تصورات شتى من الظرف

التاريخي الذي وجدوا فيه.، من أبرزهم " محمد العربي صمادح (1928-1998) في مجموعته " أفق" (1953) التي حذا فيها حذو الشابي في انتهاج سبيل الرومنطيقية الإيجابية القائمة على توظيف عناصر الطبيعة في تصوير الثورة و الاحتفاء بمعاني القوة و الإرادة و الفعل.

وهذا ما فعله " مصطفى الحبيب بحري" و " عمر السعيد الغريبي" .إلّا أنّ الشاعر الذي استحق لقب شاعر الكفاح الوطني هو " منور صمادح (1931-1998) الذي استلهم روح الشابي الوطنية و أنشأ لونا من الشعر أسماه الشعر الواقعي، قرن فيه مفهوم التحرر الوطني بالعدالة الاجتماعية.

و تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الفترة هي التي دخل فيها الشعر التونسي لأول مرّة نمط الشعر الحرّ على أيدي بعض الشبّان مثل : " مصطفى الحبيب بحري"، و " الشاذلي زوكار" و "محمد العروسي المطوي" و "محسن بن حميدة" المتأثر بالشعر الحرّ الفرنسي بحكم ثقافته المزدوجة.

من الاستقلال إلى أواخر الستينيات:

استقرت هيمنة الشعراء الكلاسكيين على المنابر الأدبية في الدوريات و دور النشر و الإذاعة. و كانت قصائدهم الجديدة تدور حول ثلاثة محاور شبه قارّة:

_ المديح السياسي – اللون الديني – و الوجدانيات ، و مهما يكن فإن هذا الاتجاه يجسّد عطاء جيل أدّى دورا لا يستهان به في الحفاظ على اللّغة العربية الفصيحة.. أحد مقومات الشخصية الوطنية ، أما التحديث فسار في اتجاهين:

الأول : تنزل في إطار القديم حرصا على التواصل بين الماضي و الحاضر.

و الثاني: كان امتدادا للشعر الشبابي الذي ظهر في المرحلة السابقة و اتجه إلى الشعر الحرّ.

من أواخر الستينيات إلى آخر الثمانينيات:

هذه مرحلة الغليان ، حيث ظهرت عدّة حركات و اتجاهات شعرية جديدة من أبرزها: الشعر الطليعي – الأخلّاء – الشعر المنجمي – الشعر الصوفي – المنحى الواقعي – الريح الإبداعية الثالثة – الشعر القومي.

و على الرّغم من قوّة حضور الطبيعة و ضخامة حجمها، إلّا أنّها لم تستقطب كل الشعراء الشبان المجدّدين في تلك الفترة .

من أواخر الثمانينيات إلى اليوم:

سمّاها البعض فترة الانفجار الشعري في تونس، و ذلك لصدور قرابة الألف مجموعة شعرية فيها، جلّها باكورات أصحابها ، و التي لم يرق معظمها إلى الجودة المطلوبة في الشعر.

و مع استمرار الجيل القديم في العطاء، لوحظ ظهور جيل جديد شاعت تسميته بجيل التسعينيات يغلب على نصوصه الطابع الإشكالي، لأنها تحمل أسئلة . فالذات الشاعرة تلوّح من خلال خطابها حائرة قلقة مهمومة. فالوجود عندها سؤال ، و طبيعة المجتمع سؤال، و الشكل الفني سؤال، و لعلّ لطبيعة المرحلة المتولدة عن انهيار الايديولوجيات دخلا في نشوء هذا التوجه و تناميه.